سيكولوجية التصوف

بقلم

السيد أبو الوفا الغنيمي التفتازاني

شيخ السادة الغنيمية

عرفت التصوف من الناحية السيكولوجية فى مقالى السابق[1] بأنه سلسلة متصلة الحلقات من الحالات الوجدانية الخاصة . وقلت إن دراسة هذه الحالات تعتمد اعتماداً كبيراً على الاستبطان ، وأن بعض الصوفية يعمدون إلى الرمز والإشارة للتعبير عن هذه الحالات .

وذهبت إلى أن أول حالة وجدانية يمر بها المتصوف هى حالة الاستعداد النفسى الصوفى ، وهى المرحلة التى تتركب من عدة حالات وجدانية كالشك والقلق النفسى والكآبة والحزن العميق والخوف من أشياء مجهوله ومحاولة استكناه الكون وكشف المحجوب وإحساسات أخرى مبهمة غامضة تنتهى جميعها بواسطة الإيحاء بالاتجاه نحو الله تعالى . ومعنى هذا أيضاً أنها تتحول إلى مجموعة من الميول القوية المشعور بها نحو هدف معين ، وتلك الميول تكون عادة مصحوبة بانفعالات واستجابات مختلفة ، كما تكون هذه الميول من القوة بحيث تكيف سلوك المتصوف وتوجهه توجيها خاصاً .

هذا وتكون هذه الميول مع تعين هدفها هو ما سميته بتكوين العاطفة الصوفية[2] ، وهو المرحلة الثانية من مراحل التصوف .

---

(١) عدد ٢ مجلد ٥ من مجلة علم النفس — اكتوبر ١٩٤٩ .

(٢) أقصد بكلمة عاطفة فى مقالى السابق أنها اتجاه أو ميل يفيد معنى الاستعداد والتأهب لسلوك الطريق العملى فى التصوف . أما الكلام عن العاطفة الصوفية بمعنى أنها قد تستأثر أحياناً بجميع مشاعر الشخص فتسمى تارة بالحب ، وتارة أخرى بالعشق أو الهوى ، فذلك معنى آخر يتحدث عنه الصوفية فيما يسمى بالأحوال والمقامات . وليلاحظ القارىء أيضاً أن مرحلتى الاستعداد النفسى الصوفى وتكوين العاطفة الصوفية هما مرحلتان وجدانيتان سابقتان على التصوف بصورته العملية .

٣ — ثم حين تقوى العاطفة الصوفية (أى الاتجاه والميل نحو التصوف) يقبل المتصوف على سلوك طريق الصوفية بصورة عملية .

والصوفى السالك إلى الله تعالى هو بمثابة المسافر فى طريق طويل ملىء بالأخطار حافل بالمشقات والأهوال . وكما يلزم على المسافر فى هذا الطريق التعرف عليه وكيفية السير فيه بإرشاد خبير عارف . كذلك يلزم على المتصوف السالك فى طريق الله أن يسترشد بهدى خبير عارف بهذا الطريق . ومن هنا يقبل الصوفية على أشياخهم بغية إرشادهم إلى طريق الله وكيفية سلوكه .

وتقوم العلاقة بين المريد[1] والشيخ على أسس نفسية ، ولا بد للمريد حين يقبل على شيخه من صفات نفسية معينة يتصف بها ، وآداب مخصوصة يتأدب بها . كذلك من شروط الطريق أن يفضى المريد إلى شيخه بدقائق أحوال نفسه ، كأن يعرض أمامه مشاكله الخاصة به ، وما يعانيه فى حياته الوجدانية من آلام ، وما يعتريه من مخاوف وشكوك ، وما ينتابه من اضطرابات نفسية مختلفة . وفى ذلك يقول السهروردى « إن المريد متى انطوى ضميره على شىء لا يكشفه للشيخ تصريحاً أو تعريضاً يصير على باطنه منه عقدة فى الطريق ، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول . ومن الأدب أن لا يدخل فى صحبة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ، ومتى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو صحبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستعد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فإن المريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمحبة والتآلف هى الواسطة بين الشيخ والمريد وعلى قدر قوة المحبة تكون سراية الحال . »[2] .

والشيخ فى حقيقة الأمر طبيب نفسانى بارع . فهو يلجأ إلى التحليل النفسى لتعرف أحوال النفس وتشخيص أمراضها ، ويعتمد على الإيحاء فى معالجة كثير من الأمراض النفسية .

---

(١) كلمة مريد مشتقة من الإرادة . والمريد على موجب الاشتقاق من له إرادة . والإرادة عند الصوفية هى ترك ما اعتاد عليه الناس من ركون إلى الشهوة . واتباع الهوى ، والخلاد إلى النفلة . فصار ترك هذه الصفات الذميمة دالا على الإرادة والتارك لها مريداً . راجع الرسالة القشيرية فى علم التصوف طبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٣٠هـ ص ٩٢ .

(٢) راجع كتاب عوارف المعارف للسهروردى طبعة مصطفى البابى الحلبى بهامش الإحياء . ١٣٣٤هـ . ص ٩٤ — ٩٥ ج ٤ .

والشيخ حين يتعرف إلى نفسيات مريديه وأتباعه يستطيع أن يرسم لكل واحد منهم طريقاً خاصاً به فى رياضاته ومجاهداته ، وإلى ذلك أشار الغزالى بقوله « والشيخ المتبوع الذى يطب نفوس المريدين ، ويعالج قلوب المسترشدين ، ينبغى ألا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وفى طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم ، وأمات قلوبهم ، بل ينبغى أن ينظر فى مرض المريد ، وفى حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته . »[1]

وقبل أن نتكلم عن المجاهدة النفسية التى يلجأ المتصوف إليها لتصفية نفسه من شوائب الحس ، وتنقيتها من أدران المادة ، ينبغى أن نشير هنا إلى ذلك التصنيف السيكولوجى الذى ذهب إليه الصوفية فيما يختص بقوى الإنسان وملكاته النفسية ، وهذا التصنيف له أهمية كبرى من حيث الدراسة السيكولوجية للتصوف .

يرى الصوفية أن فى الإنسان أربع قوى هى النفس والروح والقلب والسر . ولكل قوة وظيفة معينة وفيما يلى تعريف هذه القوى :

النفس عند الصوفية شر محض إذ أنها مركز الشهوات ، وهى أيضاً محل الأخلاق المذمومة فى الإنسان . ومثال الأخلاق المذمومة عند الصوفية الكبر والغضب والحقد والحسد وقلة الاحتمال . ومعالجة هذه الأخلاق المذمومة أشق بكثير من مقاساة الجوع والعطش والسهر وما إليها من ضروب المجاهدة البدنية .

ولقد أورد الغزالى فى تعريفه للنفس ما نصه « يراد بالنفس المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة فى الإنسان ، وهذا الاستعمال هو الغالب على أهل التصوف لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون لا بد من مجاهدة النفس وكسرها . »[2]

ويقول القشيرى فى الرسالة « نفس الشىء فى اللغة وجوده ، وعند القوم ليس المراد من إطلاق لفظ النفس لفظ الوجود . . . . إنما أرادوا بالنفس ما كان

(١) راجع كتاب إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٣ ص ٥٣ .
(٢) راجع كتاب إحياء علوم الدين للغزالى جـ ٣ ص ٣ ، ٤ .

معلولا (أي ذو علة وهي الصفة الذميمة) من أوصاف العبد وملموماً من أخلاقه وأفعاله . »[1] .

وفي اصطلاحات الشيخ محيي الدين بن عربي « النفس ما كان معلولا من من أوصاف العبد . »

أما الروح عند الصوفية فهي محل الأخلاق المحمودة ، وهي بذلك على العكس من النفس التي هي محل الأخلاق المذمومة . يقول القشيري « محل الأوصاف الحميدة القلب والروح ومحل الأوصاف المذمومة النفس . »[2]

والروح عند الصوفية هي مبدأ الحياة ، وهي لطيفة نقية متحررة من سلطان النفس وأغلال الحس . ويعزو الصوفية جميع مظاهر الإنسان الحيوية إلى الروح .

ويرى الغزالي أن الروح من أمر الله تعالى ومن ثم عجزت العقول والأفهام عن أن تدرك كنهها . وكذلك أيضاً نرى كثيراً من الصوفية يمسكون عن الكلام في ماهية الروح باعتبار أنها من أمر الله .

أما فيما يختص بالقلب عند الصوفية فهو محل المعرفة ومركزها ، ولقد بين الغزالي كيف يكون القلب مركزاً للمعرفة بأن ضرب مثالا محسوساً رائعاً فقال « لو فرضنا حوضاً محفوراً في الأرض احتمل أن يساق إليه الماء من فوقه بأنهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب إلى أن يقرب من مستقر الماء الصافي فينفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر ، فذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار ، وقد يمكن أن تساق العلوم إلى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلىء علماً ، ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ، ويعمد إلى عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تتفجر ينابيع العلم من داخله . »[3]

ويقول الأستاذ رينولد نيكلسون « والصوفية لا يستعملون اسم القلب للدلالة على تلك المضغة الجاثمة في الصدر ، بل يعنون به جوهرا لطيفاً غير مادي تدرك

---

(١) راجع الرسالة القشيرية القاهرة ١٣٣٠هـ ص ٤٤ .

(٢) راجع الرسالة القشيرية ص ٤٥ .

(٣) إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ١٧ .

به حقائق الأشياء وتنعكس عليه كما تنعكس الصور على المرآة . . . ولكن مقدرة القلب على إدراك الحقائق وقبول صورها رهن بصفائه ، لأن حجبه تختلف لطافة وكثافة بحسب ما يؤثر فيه من الحواس والشهوات والمعاصي وحب الذات . . . ولكن بمقدار ما ينكشف عن القلب من هذه الحجب تكون قدرته على المشاهدة وإدراك الحقائق . »[1]

ومن هذا يتبين لنا أن القلب عند الصوفية هو وسيلة من وسائل الإدراك[2] ، وهو لا يكون قادراً على الإدراك إلا حين يكون صافياً نقياً من شوائب الحس . وبالمداومة على الذكر والمراقبة يخلو القلب من كل شيء عدا الله فيصفو ويشرق وتتفجر فيه ينابيع المعارف الإلهية والعلوم اللدنية .

أما السر فيذهب الصوفية إلى أنه مركز المشاهدة أو الشهود . يقول القشيري « ومن ذلك السر . . . وأصولهم تقتضي أنها محل المشاهدة . . . وعند القوم على موجب مواضعاتهم ومقتضى أصولهم السر ألطف من الروح والروح أشرف من القلب . »[3]

ويتحدث الصوفية عن السر أحياناً بمعنى أنه ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد والحق في الأحوال . ويطلق لفظ سر السر بإزاء ما لا إطلاع عليه لغير الحق تعالى يقول ابن عربي في الاصطلاحات « سر السر ما انفرد به الحق عن العبد . »

ومما سبق كله يتبين لنا أن الصوفية يعتبرون النفس مركزاً للشهوات والأفعال المذمومة . والروح مبدأ للحياة والأفعال الحميدة ، والقلب محلا للمعرفة ، والسر محلا للمشاهدة .

ولكن ما هي العلاقة التي تربط بين هذه القوى ؟

الواقع أننا لا نستطيع أن نضع حدوداً فاصلة بين هذه القوى إذ أنها ذات تأثير متبادل فهي مرتبطة ببعضها ارتباطاً وثيقاً .

---

(١) راجع كتاب في التصوف الإسلامي وتاريخه وهو طائفة من الدراسات التي قام بها نيكولسون ، نقلها إلى العربية وعلق عليها الدكتور أبو العلا عفيفي ص ٨٠ .

(٢) يشير بعض الصوفية إلى قوة أخرى في الإنسان هي العقل ويختلفون في تحديد معناها . والغالب أنهم يريدون بالعقل القوة المدركة للعلوم التي تكتسب بطريق البحث والاستدلال ، في مقابل القوة المدركة للعلوم التي تأتي بطريق الكشف المباشر وهي القلب .

(٣) الرسالة القشيرية ص ٤٥ .

ويبدو لى أن الصوفى يترقى عادة فى أحواله ومقاماته من حال النفس إلى حال القلب ، ومن حال القلب إلى حال الروح ، ومن حال الروح إلى حال السر ، ويكون هذا الترقى لاشعورياً فى جميع مراحله . فالصوفى بعد أن يجاهد نفسه بإزالة دواعى شهواتها ، تزول عنها الانفعالات والاضطرابات النفسية التى تنتابها من حين إلى آخر ، فتسكن وتطمئن . ومتى سكنت النفس واطمأنت ، صفت وأشرقت وارتقت إلى حال القلب ، ثم بعد أن يمتلىء القلب بنور الإيمان ، ويظفر بصدق اليقين ، يرتقى إلى حال الروح . وينبغى أن نلاحظ أن القلب يتوسط بين النفس والروح ، فهو خاضع لكليهما متأثر بهما ، وقد تغلب عليه صفات النفس تارة ، ثم تغلب عليه صفات الروح تارة أخرى . ثم حين تقوى الروح وتشرق أنوارها ، ويبتلج نور اليقين ، تنعم الروح بالمشاهدة ، ومتى كان لها الشهود فقد ترقت من حال الروح إلى حال السر .

٤ — والآن وقد تحدثنا عن التصنيف السيكولوجى لقوى الإنسان وملكاته النفسية ، نعود فنتحدث عن المجاهدة النفسية التى هى أول ما يأخذ به المتصوف نفسه عند إقباله على طريق الصوفية .

لما كانت النفس بحسب ما يرى الصوفية مصدر القبيح من الأفعال والأخلاق فهى عدو أكبر تجب محاربته ، ويعرف جهاد النفس عند الصوفية بالجهاد الأكبر .

وللنفس خواطر ترد على الصوفى وتسمى عندهم عادة بالهواجس[1]. والخاطر الذى يرد من قبل النفس يكون داعياً إلى اتباع الشهوة أو استشعار الكبر أو ماهو من خصائص النفس . يقول الجنيد « إن النفس إذا طالبتك بشىء ألحت فلا تزال تعاودك ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها ويحصل مقصودها اللهم إلا أن يدوم صدق المجاهدة ثم أنها تعاودك وتعاودك . »[2]

والنفس بهذا المعنى الذى أشار إليه الجنيد أمارة بالسوء[3] .

---

(١) راجع تعريف الخاطر من التعريفات للجرجانى .

(٢) الرسالة القشيرية ص ٤٣ .

(٣) يلاحظ أن الصوفية قسموا النفس من هذه الناحية السيكولوجية إلى ثلاثة أقسام : النفس المطمئنة وهى التى سكنت وزايلها الاضطراب بسبب الشهوات ، والنفس اللوامة وهى التى لم تسكن بعد والتى تلوم صاحبها عند التقصير ، وتدفع عنه الشهوات ، والنفس الأمارة بالسوء وهى التى تدعن للشهوة فتعاود الإنسان من حين إلى آخر داعية له بالإقبال على الشهوات والمعاصى .

وهذه الخواطر والهواجس التى تعاود الصوفى لا تسكن إلا بالمجاهدة النفسية . لذلك يشترط فيمن يقبل على التصوف أن يتخلص فى أول أمره من هذه الهواجس بالمجاهدة . ومن ثم حفلت كتب الصوفية ببيان طرائق المجاهدة النفسية وأصولها .

والمجاهدة النفسية مرحلة هامة من مراحل التصوف . والنفس هى بمثابة السجن وانطلاق الصوفى من هذا السجن رهن بتحرره من شوائب الحس ومخالفته لهواه . ورد فى اصطلاحات ابن عربى فى تعريف المجاهدة « هى حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال . »

وأورد القشيرى فى الرسالة عن أبى على الروذبارى « إعلم أن أصل المجاهدة وملاكها[1] قطع النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها فى عموم الأوقات . وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير ، انهماك فى الشهوات ، وامتناع عن الطاعات . فإذا جمحت عند ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى . وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى ، وإذا ثارت عند غضبها فمن الواجب مراعاة حالها . فما من منازلة أحسن عاقبة من غضب يكسر سلطانه بخلق حسن وتحمد نيرانه برفق ، فإذا استحلت شراب الرعونة ، فضاقت إلا عن إظهار مناقبها ، والتزين لمن ينظر إليها ويلاحظها ، فمن الواجب كسر ذلك عليها وإحلالها بعقوبة الذل بما يذكرها من حقارة قدرها وخساسة أصلها وقذارة فعلها . وجهد العوام فى توفية الأعمال ، وقصد الخواص إلى تصفية الأحوال ، فإن مقاساة الجوع والسهر سهل يسير ومعالجة الأخلاق والتنقى عن سفسافها صعب شديد . »[2] .

ومن هذا يتبين لنا تصور الصوفية لمعنى النفس ، فهم يصورونها دائماً بصورة التمرد والعصيان . كما أنهم يدعون دائماً إلى مخالفتها إذ أنها لا تدعو الإنسان إلا إلى الشر . ولقد بالغ بعض الصوفية من أمثال الملامتية فى لوم النفس وتقريعها . وتنقسم المجاهدة الصوفية إلى قسمين الأول وهو المجاهدة البدنية كالجوع والسهر والعطش وما إليها . والثانى وهو المجاهدة النفسية التى ترمى إلى ضبط النفس من الوجهة الأخلاقية بمعالجة آفاتها كالرياء والحقد والحسد والكبر وما إليها . ومجاهدة

(١) ملاك الشىء بكسر الميم ما يقوم به الشىء .
(٢) الرسالة القشيرية ص ٤٩ .

النفس بهذا المعنى الأخير أشق بكثير جداً من المجاهدة بالمعنى الأول ، إذ أن الجوع والسهر والعطش أمور قد يقدر عليها الكثير من عامة الناس فى حين أن محاسبة النفس ومراقبتها من الناحية الأخلاقية من شأن الخواص الذين قويت إرادتهم فصارت طوعاً لهم .

والمتأمل فى أقوال الصوفية يرى أن مجاهدة النفس عبارة عن تأمل باطنى للنفس الإنسانية لتعرف عيوبها وآفاتها ، ثم علاج هذه الآفات والعيوب علاجاً يقوم على أسس سيكولوجية وبيولوجية فى آن واحد . إذ أن من أصول المجاهدة كما رأينا الجوع والسهر وكبت الغرائز[1] . وتواضع الصوفية على أن كل مجاهدة بدنية لا بد وأن تنشأ عنها أحوال نفسية معينة . وهذا يوضح لنا تماماً أثر الظواهر البيولوجية فى الظواهر السيكولوجية .

وحياة الصوفى عبارة عن كفاح مستمر . وهذا الكفاح ينشأ عن الصراع بين الميول والعواطف والنزعات التى لا توافق المبادئ الأخلاقية وبين القيم الروحية السامية التى يصبو المتصوف إلى تحقيقها . وأساس المجاهدة هو قمع هذه الميول والنزعات . وهذا القمع (répression) يكون قمعاً شعورياً إرادياً . ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد ، أن سلوك المتصوف فى المجاهدة النفسية هو سلوك إرادى يتميز بالقدرة على الكف (inhibition) ، وتركيز الانتباه فى اتجاه معين مرسوم يرى المتصوف أنه أسمى من غيره . ويبدو لى أن المجاهدة النفسية وسيلة من وسائل الإعلاء (sublimation) للغرائز الإنسانية .

ولقد اهتم الصوفية بالجانب السيكولوجى والأخلاقى من السلوك الإنسانى . وتوصلوا إلى قواعد هامة فيما يختص بالسلوك ، وأشاروا على مريديهم بالأخذ بها للاتصاف بالكمال الأخلاقى .

أبو الوفا الغنيمى التفتازانى

---

(١) راجع معنى الكبت فى كتاب مبادىء علم النفس العام للدكتور يوسف مراد ص ١٥٢ — ١٥٣ . ويلاحظ أننا نستخدم معنى الكبت فى المجال الصوفى بما يخالف المعنى الذى يذهب إليه فرويد إذ أن الكبت عند فرويد هو قمع لا شعورى فى حين أن المتصوفة يطلقون لفظ الكبت ويريدون به القمع الإرادى .